**مجلة الدراسات الفلسطينية**، المجلد 13، العدد 51 (صيف 2002)، ص 72

# استخدامات اللاسامية

## (افتتاحية)*

رافق الحملة العسكرية الإسرائيلية في نيسان/أبريل 2002 ارتفاع في حدة الاتهامات بمعاداة السامية ضد المنتقدين الدوليين لإسرائيل، ولا سيما في أوروبا. وتهدف هذه الحملة بصورة رئيسية إلى إرهاب هؤلاء المنتقدين وإسكاتهم. ومع أنه ظهرت في أوروبا وغيرها (وخصوصاً في جنوب فرنسا) مشاعر معادية لليهود، وأعمال تخريب ضد مؤسسات يهودية لا يستهان بها، فإن الخطاب اليهودي كان مخادعاً في صبغه الحملة العالمية ضد الأعمال الوحشية، التي ارتكبها الجيش الإسرائيلي بحق المدنيين الفلسطينيين، بصبغة الأنشطة اليمينية المعادية لليهود.

يجب ألاّ يستخف المرء بالموجات المتبقية من معاداة السامية التي لا تزال موجودة في أوروبا وأمكنة أُخرى، أو يقلل من شأنها. فقد عكّر إحراق الكُنُس والمراكز اليهودية في عدة مدن أوروبية صفو الحركة المتنامية المضادة للاستعمار الإسرائيلي. وغالباً ما حولت هذه الموجات اهتمام المؤيدين للفلسطينيين بين الليبراليين الأوروبيين والأميركيين إلى موقف دفاع عن النفس غير ضروري. ومن حسن الحظ أن هذه الهجمات المضادة لليهود، سواء كانت صادرة عن متحمسين شمال أفريقيين، أو عن أوساط الجناح اليميني، لقيت شجباً عالمياً واسعاً، بما في ذلك إعلان قوي من المثقفين الفلسطينيين والعرب والناشطين في أوروبا. واليوم، يشكل المهاجرون من العالم الثالث في المدن الرئيسية، الأتراك والجزائريون والهنود والباكستانيون، الهدف الأول للعنصرية في العالم الأول. وقد برز في هذا السياق ازدواجية غريبة تتمثل في الصورة الجديدة لليهودي المتكونة في الذهن العنصري. ففي حين أن التحاملات القديمة لا تزال قائمة، هناك درجة كبيرة من الإعجاب والتماهي مع الآلة العسكرية الإسرائيلية بين العناصر الأشد رجعية في العالم اليوم، وهم دعاة الفصل العنصري، والأصوليون المسيحيون من أمثال جيري فولْوِل، وعصابات حليقي الرؤوس، ومناهضو الإرهاب الدولي اليمينيون.

لقد أصبح من المعتاد اليوم، في إسرائيل وفي أوساط المدافعين عن الدولة الإسرائيلية، الربط بين انتقاد إسرائيل وبين مختلف أنواع معاداة السامية. ويؤدي ذلك عادة إلى بث الخوف والرعب، ولا سيما في أوساط الليبراليين الأوروبيين والحكومات الديمقراطية الاشتراكية. وقد نجح هذا الربط في إسكات تلك الحكومات وأولئك المثقفين،

* **المصدر:** *Jerusalem Quarterly File*, no. 15 (Winter 2002).

الذين يرهقهم عبء ماضيهم الحالك خلال الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين، عن التحدث ضد التجاوزات الإسرائيلية. كما نجح أيضاً في عزل منتقدي إسرائيل اليهود، أمثال نوعام تشومسكي ونورمان فنكلشتاين وكثير غيرهم، بوصمهم بأنهم "يهود كارهون للذات".

ومن المفيد في هذا السياق الإشارة إلى كيفية اختلاف ردات الفعل الأوروبية عن تلك الأميركية. فبعد مرور أوروبا بعملية تصفية الاستعمار العنيفة في الخمسينات والستينات من القرن العشرين، صارت اليوم ترى بوضوح من خلال منظار تلك التجربة الاستعمارية أن إسرائيل هي آخر معقل للإمبريالية القهرية في القرن الحادي والعشرين. بل إن دولة مثل ألمانيا اليوم، بما في ذلك الأحزاب الألمانية الواقعة إلى يمين الوسط، تشعر بأنها قادرة على توجيه انتقادها إلى السياسات الإسرائيلية من دون أن يقيدها ماضيها. وتلك ليست علامة على انبعاث اللاسامية كما يعتقد كثيرون من الإسرائيليين، وإنما علامة على إدراك أن إسرائيل نفسها تفوقت على الماضي الألماني. أمّا أميركا فإنها ترى إسرائيل دولة في عالم جديد، منهمكة في عملية (إعادة) استيطان أرض قديمة لليهود حق مشروع فيها. وتلك طبعاً صورة نمطية مبالغ فيها لكيفية رؤية الثقافتين للدولة العبرية، لكنها تساعد في فهم سبب وجود ميل في الولايات المتحدة – واضح في الكونغرس وبين الأصوليين المسيحيين وبين المثقفين الرئيسيين – إلى التماثل مع إسرائيل كمنتوج للتجربة الأميركية في فتح أراض جديدة لمصلحة الحضارة. ولذلك تنظر هذه الأوساط إلى المقاومة الفلسطينية للهيمنة الإسرائيلية، والعنف عامة، على أنهما استمرار للتقليد القديم المعادي للسامية، ولا تميّز بصورة عامة بين الرفض المشروع للاحتلال الإسرائيلي وبين العنف ضد المدنيين الإسرائيليين.

مع ذلك، فُتحت هذه المرة ثغرة في قدرة إسرائيل على استخدام اللاسامية أداة للتخويف. صحيح أن العمليات الاستشهادية الفلسطينية ضد الأهداف المدنية الإسرائيلية، وفشل عرفات في احتوائها، ولّدت تعاطفاً أولياً مع الحملة التي تشنها إسرائيل ضد أهداف في السلطة الوطنية الفلسطينية وعلى المجموعات المناضلة، لكن عندما اتسعت هذه الأهداف وتحولت الهجمات إلى حملة منهجية يشنها الجيش ضد المدنيين، ومع انكشاف الأعمال الوحشية في جنين ونابلس، فضلاً عن السلب والنهب للمؤسسات العامة والبيوت الخاصة من قبل أفراد في قوات الاحتلال الإسرائيلية التي كانت منضبطة ذات يوم، أصبح من الصعب المحافظة على الصورة الأولية التي ارتسمت للجيش الإسرائيلي كجيش لشعب يدافع عن وطنه ضد الإرهاب. فالتقارير الكثيرة عن جنود الجيش الإسرائيلي المغادرين ومعهم حوائج مسروقة ومدخرات شخصية ومجوهرات مصادرة من المنازل التي يفتشونها، انتشرت كثيراً بحيث لم يعد

في الإمكان إنكارها، وفي عدة حالات ضُبط الجنود متلبسين من قبل أعضاء في الهيئات الدبلوماسية.

ومع تقدم الحملة، أوضحت تصريحات شارون الرسمية هدفها الحقيقي، وهو تدمير "الترتيبات الموقتة" لاتفاق أوسلو وإلغاؤه، والحرص على بقاء حتى أكثر المستعمرات بعداً سليمة في أي ترتيب مستقبلي مع الفلسطينيين، وأخيراً ضمان عدم قيام دولة فلسطينية ذات مغزى.

بعد انتهاء الهجمة العسكرية الرئيسية على المدن في نيسان/أبريل، بلغت الحملة المنسّقة ضد "اللاسامية الأوروبية" ذروة جديدة، وأصبحت سلاحاً رئيسياً في يد المؤسسة الإسرائيلية ضد تأييد حق تقرير المصير للفلسطينيين، بل حتى ضد توجيه أي انتقاد إلى القوة العسكرية الإسرائيلية مهما يكن. لكن، مؤخراً، بدأت هذه الحملة ترتد على أصحابها. فقد رد كبار المثقفين والفنانين اليهود بتذكير حكومة شارون بأن الموجة الجديدة للاسامية الفعلية أطلقتها وعززتها الأعمال الوحشية للجيش الإسرائيلي تحت ستار محاربة الإرهاب. كان ذلك موقف وودي آلن في مهرجان "كان" السينمائي رداً على دعوة المنظمات اليهودية الأميركية إلى مقاطعة الأنشطة الثقافية الفرنسية والأوروبية. فهو يرى، على غرار كثير من زملائه في أوروبا، الهجمات على مراكز يهودية في أوروبا في سياق أوضاع ديموغرافية جديدة. وثمة اتفاق واسع بشأن هذه المسألة بين المعلقين الرئيسيين في أوروبا اليوم. "إن حَبْك كل هذه المواقف [الهجمات على المراكز اليهودية وبروز الأحزاب اليمينية وانتقاد إسرائيل] معاً كدليل على اللاسامية في أوروبا مشوِّه جداً للحقيقة، بل خطأ" – كتب محرر "الغارديان" [اللندنية] في 16 أيار/مايو – "فبروز الأحزاب اليمينية المتطرفة يعكس العداء للهجرة، وكثير منها من الدول الإسلامية، أكثر مما يعكس العداء للسامية. أمّا التظاهرات المؤيدة للفلسطينيين فكانت رداً على ما اعتبره الأوروبيون إفراطاً في الإجراءات العسكرية الإسرائيلية".■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf